إلى طلاب قسم الفلسفة – جامعة دمشق – السنة الرابعة

محاضرة الفكر العربي المعاصر – السابعة والثامنة

تاريخ ٢٠٢٠/٤/٢٩ – ٢٠٢٠/٥/٦

عنوان المحاضرة: "العرب وإمكانات الفعل الحضاري"

أستاذ المقرر: الأستاذ الدكتور فارس النداف

عنوان المحاضرة

((العرب وإمكانات الفعل الحضاري))

عناصر الفصل

مقدمة

العامل التَّاريخي

الإقصائيَّة والتفاعليَّة

الإمكانات البشرية

الكفاءات العلميَّة

الثروات الطبيعيَّة

الكفاءات المالية

خاتمة

إن غاب المنطق أو حضر نحن أمام إمكانات في مختلف المجالات والأصعدة والميادين لا يمكن نكرانها، قادرةٍ على تحقيق نهضةٍ عربيَّةٍ إن لم تكن خارقةً فلن تكون أقلَّ من جبَّارةٍ؛ نهضةٍ في مختلف المجالات والأصعدة والميادين.

مقدّمة

إنَّ الموقع الذي يحتلُّه العربُ اليوم على الخريطة الدُّوليَّة من جهة احتلال المراتب ذاتِ دلالات التردِّي في المكانة والفعل والأداء على مختلف المستويات؛ العلميَّة والتِّقانيَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة والقيميَّة وحَتَّى النَّفسيَّة... يفرض علينا بقوَّةٍ مجموعةً من التَّساؤلات التي لا ندحة عن طرحها. وإذا كان السُّؤال الرَّئيس الذي سيقف في طليعة الأسئلة هو: ما العمل ؟ ووقف إلى جانبه السُّؤالان المكملان: كيف يمكن أن نخرج من هذه الدَّائرة؟ وما الإمكانات التي نملكها للخروج من هذه الدَّائرة؟ فإنَّ الإجابة تقتضي الإجابة عن أسئلةٍ أُخرى سابقةٍ على هذه الأسئلة منطقيًّا وتتركَّز هذه الأسئلة في محورين أو سؤالين رئيسيين هما:

ـــ لماذا وصلنا إلى هذا المستوى المتردِّي من الأداء والمكانة؟

ـــ وهل تستحقُّ أمَّتنا هذه المهانة في القيمة والمكانة؟

كلُّ هذه الأسئلة مهمَّةٌ بجدارةٍ، وتستحقُّ الإجابة بكلِّ تأكيدٍ، بل تستحقُّ أن تفرد لها المساحات الواسعة، وقد بات بحكم المتَّفق عليه أنَّ توصيف المشكلة جزءٌ من الحلِّ بل هو ذاته نصف الحلِّ، لأنَّ التَّوصيف يضع الإصبعَ على المعالم التي يجب من خلالها استنباط الحلِّ، كما يضع الإصبعَ على الأسباب التي قادت إلى المشكلة. والحلُّ بالاتِّفاق هو معالجة الأسباب وتلافيها.

إذا كانت التَّجزئة على رأس أسباب تموضع العرب في الموقع المتردي من الأداء والفعل الحضاريين على الخريطة العالميَّة فإنَّ تجاوز التَّجزئة ليس كلَّ الحلِّ ولن تكون الوحدة أو بدائلها هي المخرج الكافي للعرب من موقعهم هذا. وإنَّما ستكون الوحدة

أو بدائلها هي المفتاح الأكثر أهميّةً لوضع العرب في مكانتهم اللائقة من الفعل والقدرة عليه.

هذا يعني أوّلاً وقبل كلّ شيءٍ أنّ أمتنا أكبر بكثيرٍ من المكانة والقيمة التي تحتازها اليوم على خريطة الفعل الحضاريّ والتّاريخيّ. وإن كنّا ننظر إلى أمّتنا هذه النّظرة فإنّنا لا ننكر على أيّ أمّة أن تنظر إلى نفسها من المنظور ذاته. ويجب أن لا نتوقّع أنّ أمّتنا وحدها الجديرة بالمكانة السّامية الرّفيعة فكلّ الشّعوب من حقّها أن تنظر إلى أممها هذه النّظرة. ولكن لا يجوز أبداً نحترم حقّ الشّعوب في احتلال المكانة الرّفيعة السّامية ونحرم أمّتنا هذا الحقّ. ولا يجوز أن ننظر إلى الشّعوب وهي تتسابق من أجل تعزيز مكانات أممها وإعلاء شأنها ونكسر نحن أيدينا ونتسول عليها، ولا أن نرفع الرّايات البيضاء ونعلن يأسنا واستسلامنا.

هذا يقودنا على الفور إلى المدخلِ الحقيقيّ للفعل الحضاريّ العربيّ الذي يكمن في وعيِ الأزمة التي تعيشها الأمّة ووعيِ الانتماء والهويّة، وتحقيق التّوافق على هذا الانتماء والهويّة. ويرتبط بذلك جملةٌ من الشّروط اللازمة لزوم الضّرورة التي يقف على رأسها تحديد سلّمٍ لأولويّات الأمّة وأوليّاتها ثُمّ تحديد الخصوم والأعداء والأصدقاء.

قد تبدو هذه الشّروط أو المطلوبات سهلةً ويسيرةً، وقد تبدو لبعضهم ضرباً من البداهات التي لا تستحقّ أيّ نقاشٍ أو جدالٍ، ولكنّها في حقيقة الأمر أكبر من ذلك وأخطر بكثيرٍ لأنّ الواقع العربيّ المعاصر واقعٌ مأزوم؛ مأزومٌ في تحديد العناصر/ الشّروط السّابقة كلّها، فإنْ كان ثَمّةَ شبه اتّفاقٍ على أولويّات العمل والنّهوض كونها عناصر منهجيّةً تدور في فلك التّربية والتّعليم والتّحديث والتّطوير والحريّة والدّيمقراطيّة وغير ذلك مما لا يلاقي كثيراً من الخلاف... فإنّ فكرنا العربيّ المعاصر في سجالٍ مرٍّ واختلاف كبيرٍ في تحديد الهويّة والانتماء والأعداء والأصدقاء... وهذا هو الشّق الأكثر خطورةً، لأنّ أيّ اتّفاقٍ على ما دون ذلك لا يغني ولا يسمن من جوع.

ولذلك فإنّ الاتّفاق على هذه التحديدات جديرٌ بأن تسلخ له الجهود الكبيرة الجليلة، وأن يتمَّ التّفرُّغ لحسمها لأنّها وحدها التي تضمن لنا وضع أقدمنا على بداية الطّريق المستقيم الذي له بدايات كثيرةٌ ونهاياتٌ كثيرةٌ وأيُّ مسيرٍ على هذا الطّريق يعني قطع شوطٍ ووصولاً إلى نتيجةٍ. ومن دونها سنظلُّ نسير على محيط دائرةٍ لا بدايةَ لـه ولا نهاية؛ فنظلّ ندور وندور من دون الوصول إلى أيّ غايةٍ أو نتيجةٍ.

هذا يعني أنّ الحلول المطروحةَ المتمثّلةَ بتحقيق الحريّة والدّيمقراطيّة والتّعدديّة السّياسيّة بوصفها هي التي تؤدّي إلى الفعل الحضاري والتّاريخي ليست إلاّ حلولاً بهلوانيّة استعراضيّة أكثر مما هي حلول أو حتّى مشاريع حلولٍ لأنّها لا تعدو كونها وضعاً للعربة أمام الحصان.

من المؤكّد أنّنا لسنا ضدّ الحريّة والدّيمقراطيّة والعدالة والتّعدُّديّة السّياسيّة لا كلاًّ ولا بعضاً، ولا أظنُّ أنّ ثَمَّةَ من يحاول رفض هذه القيم، ولكنّها في حقيقة الأمر، وكما أثبتت ذلك التّجارب التّاريخيّة التي مرّت بها كلُّ الأمم والشّعوب، هي ثمار الفعل الحضاريّ للأمّة وليست مقدّمات لها؛ الفعل الحضاري للأمّة هو الذي يفرز هذه القيم ويفرضها على الممارسة السّياسيّة والاجتماعيّة وليس العكس. وأعني بذلك تماماً أنّنا يجب أن نناضل للوصول إلى هذه القيم من خلال بناء البنية التّحتيّة المناسبة لها والتي تؤدّي إليها بالضّرورة، لا أن نفرض هذه القيم بانتزاع مراسيم رئاسيّة أو ملكيّة تقرُّ هذه القيم، ثُمَّ نفكّر في بناء القاعدة التّحتيّة؛ الاقتصاديّة والمعرفيّة والعلميّة والتّقانيّة... لأنّ الحريّة التي تعطى بفرمانٍ أو مرسومٍ تنتزع بفرمانٍ أو مرسومٍ، ناهيك فوق ذلك عن الأمر الأكثر أهميّةً وخطورةً وهو أنّ البنيّة العقليّة والنّفسيّة والقيميّة للمجتمع المتخلّف لا يمكن أن تمارس الدّيمقراطيّة بديمقراطيّة ولا غيرها من هذه القيم، لأنّ الدّيمقراطيّة والحريّة والتّعدديّة... هي التّجسيد الحيُّ لمستوى الوعي والانتماء والفعل الحضاريّ والتّاريخيّ للأمّة. وهذا المستوى من الوعي والانتماء والفعل هو ما يجب أن نفكّر في بنائه وإعلائه لنضمن تحقيق تلك القيم؛ تلك القيم غايات، ورفع

مستوى الوعي والفعل الحضاري هو الوسائل والأدوات لتحقيق تلك الغايات. وقلب الغايات إلى وسائل يعني أنَّ المرء يسير على يديه بدل رجليه.

السُّؤال الذي يجب طرحه هنا إذن هو كيف نرتقي بمستوى الوعي والفعل والأداء والقوَّة؟ والسُّؤال الذي يرتبط به مباشرةً هو: ما الإمكانات المتاحة أمام العرب لتحقيق ذلك؟

قبل الإجابة عن هذين السُّؤالين لا بدَّ من الوقوف عند السُّؤال الأكثر أهميَّة والذي لا يمكن تجاهله ولا يجوز لأنَّ عدم الوقوف عنده سيجعل دائرة الإجابة غير مكتملةٍ وبلا جدوى، وهذا السُّؤال هو: لماذا وصلنا إلى هذا المستوى المتردِّي من الأداء والمكانة؟ أو بمعنى آخر: ما السَّبب الذي أوصلنا إلى ما نحن عليه؟

من دون معرفة السَّبب سنظلُّ ندور في دائرةٍ مغلقةٍ. ولن نصل إلى حلٍّ مطلقاً.

سنجد من يقول إنَّ الحكَّام هم السَّبب، ولن نعترض على ذلك. وسنجد من يقول إنَّ المؤامرة الغربيَّة أو الاستعماريَّة هي السَّبب ولن نعترض على ذلك أيضاً. وسنجد من يقول إنَّ التَّخلُّف والجهل هما السَّبب ولن نعترض على ذلك أيضاً. ولكنَّ ذلك كلَّه لا يكفي ولا يعبِّر أبداً عن الحقيقة، لأنَّ هذه الأسباب لا تعدو كونها الأسباب الخطيَّة المباشرة، أو النِّهائيَّة للسَّبب الحقيقي، بل ليست إلا نتائج للسَّبب الحقيقي.

1- العامل التَّاريخي

السَّببُ الحقيقيُّ الذي يقف وراء تردِّي الأداء العربيِّ والموقع الذي يقف فيه العرب على خريطة الفعل الحضاريِّ والتَّاريخيِّ بمختلف أوجهه وجوانبه هو انتفاء الشَّرط التَّاريخيِّ للفعل الحضاريِّ. والشَّرط التَّاريخيُّ للفعل الحضاريِّ للأمَّة ليس سبباً مشخصًّا واحداً ولا سبباً خطيًّا مباشراً وإنَّما هو جملةٌ من العوامل الموضوعيَّة المرتبطة بالسَّيرورة التَّاريخيَّة للأمَّة وتموضعها وإحداثياتها على هذا المسار، وإلى جانب ذلك توازنات القوى والفعل الأخرى المركَّبة على هذا المسار.

بلغةٍ ميسَّرةٍ سهلةٍ يمكن الاستعانة **بابن خلدون** الذي صاغ المشكلة بما سمَّاه أجيال الدَّولة، أو عمر الدَّولة من خلال أجيالها الثَّلاثة: البناء والقوَّة والاضمحلال. كلُّ أمَّة، مع تباين مستويات الأداء والموقع، تمرُّ بهذه الأجيال الثَّلاثة، ويكون الجيل الثَّالث والرَّابع هو جيل استراحة المحارب التي لا بُدَّ منها، لأنَّهُ لا يمكن لأمَّةٍ أن تظلَّ هي القوَّة الرَّائدة والفاعلة وتظلَّ الأمم الأخرى في مواقع الانفعال والتَّلقي والخضوع...

هذا يعني أنَّ عوامل اضمحلال الإمبراطوريَّات وانهيارها هي عوامل موضوعيَّة داخليَّة أكثر منها خارجيَّة ولا ننفي أن يكون للخارج دورٌ يكبر أو يصغر في ذلك. والعوامل الدَّاخليَّة لاضمحلال دور الأمَّة وموقعها على خريطة الفعل الحضاريِّ والتَّاريخيِّ هي التي تلعب هذا الدَّور المزدوج؛ تفكيك الأمَّة وانهيارها من جهةٍ وإغراء الفاعل الخارجيِّ، أي الأمم الأخرى، بالتَّقدُّم لسدِّ الفراغ وإطلاق رصاصة الرَّحمة على الأمَّة الرَّاحلة.

هذا ما حَدَثَ لكلِّ الإمبراطوريَّات الكبرى وحَتَّى الصُّغرى التي عرفناها عَبْرَ ما مضى من التَّاريخ، وهذا ما سيحدث لصاحبة الجلالة الولايات المتَّحدة التي تكابر على الجراح وتستنفد كلَّ الإمكانات والطَّاقات للاستفادة من دروس التَّاريخ والهروب من هذا المصير وجعل التَّاريخ والزَّمان يقفان ويتجمَّدان لتبقى الولايات المتحدة الأمريكيَّة سيِّدة العالم إلى الأبد ويكون ذلك هو: نهاية التَّاريخ[٦٨]. ونسيت الولايات المتَّحدة أو أنَّها تتناسى أنَّ الأمَّة هي التي تنتج من داخلها بذور اضمحلالها وهلاكها، وهذا ما تفعله الولايات المتحدة اليوم.

---

٦٨ ــ هذه هي خلاصة نظرية الأمريكي الياباني الأصل فرنسيس فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ، وهذه النظرية أحد أعمدة السياسة الأمريكية منذ انتهاء الحرب الباردة، وعلى نحو خاصٍّ منذ أصدر فوكوياما كتابه هذا في أواسط التسعينيات من القرن العشرين.

إذن الموقع الذي يحتلّه العرب اليوم هو الموقع الطّبيعي لهم بعد مسيرةٍ من العطاء والسّيادة والتّفرُّد دامت مئات السّنين. وكما أنّ أمريكا هي روما أوروبا كذلك فإنّ الدّولة العثمانيّة هي روما العرب؛ روما عصر الجبروت العسكري واضمحلال الفعل الفكري وهي كذلك عصر الانهيار.

إذن أمّتنا في حالة الاستراحة والاسترخاء، وللأسف فإنّ الاستراحة والاسترخاء هنا ليست نعيماً ولا متعةً وإنّما هي العجز عن الإمساك بخيوط الفعل وعدم القدرة على التّحكّم بزمام المبادرة؛ الفارس طوال المعركة يفعل العجائب، فإذا ما أدركه التّعب والإجهاد رُبّما يغلبه غرٌّ صغيرٌ، وطيلة فترة إجهاده هو عرضة للهزيمة من الآخرين. وهذا هو حال الأمّة. إنّنا في حالة الإجهاد والتّعب التي تسمح للصغار أن يتحكّموا بنا.

هل يعني هذا السُّكوت؟

هل يعني الاستسلام للأمر الواقع؟

هل يعني رفع الرّايات البيضاء؟

هل ينفي أنّ هناك الكثير من الإمكانات الهائلة التي بَيْنَ أيدينا؟

هل يعني أنّ هذه الإمكانات لا قيمة لها؟

من السّهل أن نجيب بالنّفي على جميع هذه الأسئلة. وكذلك من السّهل أن نجيب بالإيجاب. ولكنّ المسألة ليست بهذه السُّهولة المتخيَّلة على الإطلاق.

كلّنا يعرف أنّهُ سيموت حكماً وبالضّرورة، ولكن متى سيموت؟ لا أحد يعرف إلا إذا قرّر الانتحار. وكذلك الأمّة؛ إذا قرّرت الانتحار تعرف متى تموت وترفع الرّايات البيضاء وتعلن انسحابها من الحياة بهدوء أو ضوضاء. فإذا كنّا نريد الانتحار فلنقل: نعم يجب أن نسكت ونستسلم ونرفع الرّايات البيضاء، وأنّ كلّ الإمكانات الموجودة بَيْنَ أيدينا لا معنى لها ولا قيمة ولا قدرة على الفعل.

أمَّا إذا أردنا الحياة فعلينا أن نرفض الاستسلام واليأس، ونعلن أنَّ الإمكانات المتاحة بَيْنَ أيدينا وإن كانت قليلة فإنَّها قادرة على صنع المعجزات، وعند ذلك ستكون الإمكانات فعلاً قادرةً على صنع المعجزات، وإن لم تكن كذلك فعلاً في طبيعتها كانت كذلك في إمكاناتها الدَّاخليَّة وأدَّت إلى خلق الإمكانات الأكثر قدرة.

هذا ليس شعراً ولا أحلاماً ولا أوهاماً على الإطلاق، إنَّهُ فلسفة من يريد الحياة، وإن كان من حقّ المرء أن يقرِّر أمر انتحاره الشَّخصيِّ فلا أحد يحقُّ له أن يقرِّر انتحار الأمَّة مهما كان شأنه ومكانه ومكانته. والذي يبدو هو أنَّ قادة الأمَّة الأفاضل يعيشون اليوم انطلاقاً من قرار الانتحار، وإرادة الانتحار لأنَّهُم يرفضون رؤية الإمكانات الهائلة التي تمتلكها الأمَّة العربيَّة على مختلف الأصعدة والمستويات والميادين، والذين يرون هذه الإمكانات الهائلة حَتَّى الإدهاش يقرِّرون سلفاً أنَّها عديمة الجدوى والفاعليَّة، بل إنَّ منهم من يردِّد ترديداً ببغاويًّا مع أعداء الأمَّة أنَّ استخدام هذه الإمكانات لصالح الأمَّة العربيَّة خطرٌ عليها وسينعكس عليها بالسَّلب والضَّرر؛ استخدام النِّفط سلاحاً يجعل العرب الخاسرين الوحيدين فيما تستفيد الشُّعوب الأخرى، منع استخدام قناة السويس مدخلاً لأيِّ قوَّة عسكرية تهدِّد المنطقة خطرٌ على المنطقة لأنَّ قناة السُّويس معبرٌ دوليٌّ لا يحقُّ لنا استخدامه... وكذلك الكثيرُ الكثير من هذه الأمثلة.

مصيبتنا الكبرى تكمن أوَّلاً في أنَّنا لا نمتلك إرادة الحياة، وعدم امتلاكنا هذه الإرادة هو الذي يفرغ كلَّ أسلحتنا من ذخائرها ويغلق كلَّ الأبواب التي تنفتح أمامنا على آفاق الفعل وامتلاك زمام المبادرة، وفي هذا ما يفسِّر لنا العجائب الأسطوريَّة التي تحدث على أرضنا العربيَّة اليوم من دون أن نجد ما يمكن أن يفسِّرها أو يوجد سبباً لتقبُّلها؛ السُّودان التي هي سلَّة غذاء العالم، التي هي قادرة وحدها على أن تمدَّ العالم كلَّه بما يحتاجه من الغذاء، يموت أبناؤها ليس جوعاً بل في المجاعات التي تجتاح البلاد بَيْنَ الحين والحين. ومثلها الصُّومال وإريتيريا!!! كذلك في حين أنَّ دولنا العربيَّة تصدِّر

النّفط للعالم كلّه نعيش دائماً أزمات نقص الوقود وغلاء الوقود!!! وفي حين أنّ بعض الدُّول العربيَّة تقف في طليعة منتجي القطن والأنسجة في العالم نجد أبناءها عراةً عاجزين عن شراء ما يستر عوراتهم!!! والأمثلة كثيرةٌ ومتنوِّعةٌ للأسف الشَّديد.

ويبقى السُّؤال الذي يفرض ذاته بقوَّة دائماً: ما هي قدرات العرب على الفعل؟ وما هي الإمكانات الموجودة بَيْنَ أيديهم أو المتاحة لهم لهذا الفعل الحضاريِّ والتَّاريخيِّ؟

لن نؤكّد ولن ننفي، ولن نهوّل في هذه الإمكانات وقدراتها ولن نقزِّمها أو نقلّل من شأنها. سنقف عند معطيات واقعيَّة غير خلافيَّة، وسنعرف من خلال هذه المعطيات الواقعيَّة الخاضعة للقياس المنطقيِّ والرِّياضيِّ مدى ما يمتلكه العرب من خيوط الفعل الحضاريِّ والتَّاريخيِّ وإدارة دفّة امتلاك زمام المبادرة والتَّحكُّم بها. ولكن قبل ذلك لا بُدَّ من الوقوف ولو وقفةً صغيرةً عن مسألةٍ مهمَّةٍ وخطيرةٍ جدًّا، وحسَّاسةٍ جدًّا في الوقت ذاته يتهيب الكثيرون من الدُّخول في حماها، وهي مسألة العلاقة بَيْنَ الأمم والشُّعوب من ناحية الفعل الحضاريِّ والتَّاريخيِّ، وهي ما سنسمِّيه الإقصائيَّة والتَّفاعليَّة، أو ما يتحدَّث عنها بعضهم تحت عنوان صراع الحضارات، وإن اختلف الأمر بعض الشَّيء.

2- الإقصائيَّة والتفاعليَّة

إنّ ما ينبغي الانتباه إليه وأخذه بعين النَّظر والحسبان هو أنّ التحديات والتَّهديدات والضغوطات التي تتعرَّض لها الأمَّة العربيَّة من قبل الغرب عامَّة ومن الولايات المتَّحدة خاصَّةً ليس نابعاً من العداء التَّاريخيِّ بَيْنَ الشَّرق والغرب، وهو أمرٌ ليس غائباً على أيِّ حال، وإنَّما لأنّ نهضة الأمَّة العربيَّة ووحدتها وأيَّ قوَّة تحتازها الأمَّة العربيَّةُ وأيَّ نشاطٍ زائدٍ عن حدودٍ معيَّنةٍ يعني في ميزان القوى والمصالح أنّ ذلك سيكون على حساب المصالح الأمريكيَّة والهيمنة الأمريكيَّة وامتداد النُّفوذ الأمريكيِّ، والعالم الغربي من وراء الولايات المتَّحدة.

هذا يعني أنَّهُ لو كانت اليابان أو الصّين أو الهند أو الأرجنتين أو أيّ دولة هي التي تقف مكان الولايات المتحدة في الهيمنة العالميَّة لما اختلفت في ممارستها في الضُّغوط والتَّهديدات عن ممارسة الولايات الأمريكيَّة. من المؤكَّد أن أطراف اللعبة السياسيَّة والأحلاف والأعداء يكون لهم وضعٌ جديدٌ وترتيبات أخرى تتوافق مع موازين القوى القائمة، ولكن الآليَّة ستظلُّ هي ذاتها في تتبُّع الطَّرف الذي يشكِّل تهديداً لمصالح الدَّولة الإمبراطوريَّة التي تتحكَّم بالخيوط السِّياسيَّة والاقتصاديَّة في العالم.

هذا يعني لنا هنا وبدرجة قصوى من الأهميَّة أنَّ نهوض أمَّتنا أو أيَّ أمَّةٍ لا يمكن أن يكون تلقائيًّا أو آليًّا على نحوٍ يشبه التَّرفيع الوظيفيَّ لأنَّ المسألة ليست مسألة قِدَمٍ وظيفيٍّ تستحقُّ معه الأمَّة التَّرفيع إلى مكانةٍ أعلى، ولا هي مسألة دورٍ لن يأخذه أحدٌ منَّا، وكأنَّ الأمم زبائن تقف وراء بعضها على باب سوبرماركت الفعل الحضاري. وإنَّما هو نضالٌ وسعيٌ وتضحيات وصراع مصالح وتنازع مكانةٍ بَيْنَ الأمم والشُّعوب. وهذه العمليَّة، بمختلف حواملها وعواملها ومحاورها وأدواتها، تتمُّ كما قرأنا في تاريخ الحضارات، على جبهتين؛ جبهةٍ داخليَّةٍ تأتي أولاً وجبهةٍ خارجيَّةٍ تأتي ثانياً. ولذلك تدفعنا الضَّرورة دائماً إلى الإلحاح على وعي الهويَّة والانتماء وتحديد الأصدقاء والأعداء... بوصف ذلك الخطوة الأساسيَّة التي لا غنى عنها للوقوف على خطِّ البداية وقفةً صحيحةً.

وبعد ذلك بقَدْرِ الإمكانات والشُّروط والظُّروف والمعطيات المتوافرة للأمَّة، وبقَدْرِ الإرادة التي تتعامل مع كلِّ ذلك والغاية التي تسعى إليها هذه الإرادة... ترتقي الأمَّة على سلَّم الفعل الحضاريِّ والتَّاريخيِّ. وهنا يمكننا أن نميِّز بَيْنَ طبائع الشُّعوب والأمم وعقلياتها وحتَّى عقائدها التي تدفعها لمزيد من السَّعي والنِّضال.

والجدير بالانتباه إليه هنا أيضاً هو أنَّ مساحة السَّعي مفتوحةٌ أمام جميع الأمم على قدم المساواة، ولا يحقُّ لأمَّة أن تصادر على حقِّ غيرها من الأمم، ولا أن تتكل على أنَّ الأمم الأخرى أو أمَّةً أخرى غير مؤهلةٍ للنُّهوض أو الفعل، أو غير قادرةٍ على

ذلك، ولا أن تنطلق من أنّ الإمبراطوريّة القائمة (الأمريكيّة) لن تنهار قريباً ولـذلك يجب الاستكانة وعدم التّحرُّك، ولا أن نتوقّع أنّ انهيار الإمبراطوريّة سيتمُّ قريباً فنجلس في انتظار هذا الانهيار. يجب ألاّ ينقطع السّعي والعملُ مهما كانت الظُّروف والشُّروط والمعطيات الدّاخليّة والخارجيّة.

3- الإمكانات البشرية

الإمكاناتُ البشريّةُ مضمونٌ واسعُ الدّلالة يمكن الحديث عنه من جانبين؛ الإمكانات البشريّة بوجهٍ عامٍّ، والكفاءات العلميّة بوجهٍ خاصٍّ.

الإمكانات البشريّة بوجهٍ عامٍّ دلالةٌ عامّةٌ تنطوي على شيءٍ من المطلقيّة المتضمّنة الكثيرَ من المؤشّرات الدّلاليّة التي يمكن الحديث فيها، رُبّما يكون عدد السُّكان واحداً من هذه المؤشّرات، ورُبّما تكون حيويّة أبناء الأمّة أحد المؤشّرات، ورُبّما عقليّة هذه الأمّة وغير ذلك كثيرٌ.

لن ندّعي أكثر مما لا يجوز لأحدٍ أن ينكره علينا وهو أنّنا أمّةٌ مثل بقيّة الأمم في إمكاناتها البشريّة والقدرات التي تنطوي عليها هذه الأمّة؛ لسنا أكثر عبقريّةً من غيرنا، ولا أكثر حيويّةً، ولا أشدّ همّةً... كلُّ الأمم في ذلك سواء. ومع منطقيّة هذا التّصوُّر سيوجد من يسير في اتجاهٍ مخالفٍ لمنطقيّته؛ إمّا بالتّقليل من شأن الإمكانات البشريّة لأمّتنا أو بتفضيلها على غيرها. سنخرج من هاتين الدّائرتين لنبق في دائرة المنطق التي يفترض أنّها الأكثر تقبُّلاً من النّسبة الأعظم. وعلى هذا الأساس يمكن القول إنّ الإمكانات البشريّة للأمّة العربيّة مكافئةٌ رياضيًّا لإمكانات دول الاتّحاد الأوربيّ، أو إمكانات الولايات المتحدة الأمريكيّة، وهي في الوقت ذاته مكافئةٌ أيضاً رياضيًّا لإمكانات شعوب أمريكا اللاتينيّة، أو لثلث إمكانات الهند أو الصّين.

ولكن مع ذلك لا نستطيع إلاّ أن نتذكّر أنّ أوّل توصيفٍ أوربيٍّ معاصرٍ لإمكانات أمّتنا البشريّة هي التي تصدّرت نتائج مؤتمر **كامبل بنرمان** رئيس الحكومة البريطانيّة في مطلع القرن العشرين، إذ كانت أولى النّتائج التي وصل إليها تقرير هذا

المؤتمر هي أنَّهُ يعيش «في هذه المنطقة الحساسة أمَّةٌ واحدةٌ تتوافر لها من وحدة تاريخها ودينها ولسانها وآمالها كلُّ مقومات التَّجمع والتَّرابط والاتحاد، وتتوافر في نزعاتها التَّحرريَّة وفي ثرواتها الطَّبيعيَّة وفي كثرة تناسلها كلُّ أسباب القوَّة والتَّحرُّر والنُّهوض»[٦٩]. وقد أثبتت التَّجارب والمعطيات التَّاريخيَّة أنَّ أبناء الأمَّة العربيَّة قادرون في أزمنةٍ قياسيَّة تحقيق ما يشبه المعجزات إذا ما تحققَّت لهم بعض الظُّروف المناسبة، وفي أيِّ فرصة تتاح لهم.

حسبنا من ذلك كلّه على أيِّ حالٍ أن نعلم أنَّ قيم الإمكانات وتحقُّقاتها ليست معطياتٍ رياضيَّةً جامدةً حتميَّة النَّتيجة، وإنَّما هي حركيَّات مرتبطةٌ بما سبق وأشرنا من شروطٍ وظروفٍ ومعطيات. ولذلك ليس تساوي عدد السُّكان دالاً حتميًّا على تكافئ المكانة والقيمة والفعل. ولذلك قد تكون أمَّةٌ عظيمةٌ في عدد سكَّانها هامشيَّةً تماماً في حِيْنِ نجد أمَّةً جدَّ صغيرةٍ في عدد سكَّانها تقف في الطَّليعة أو الصَّفِّ الأول بَيْنَ الدُّول العظيمة، وقد علمنا كيف أنَّ اليابان الدَّولةُ الصَّغيرة نسبيًّا قد احتلت الصِّيِّن الدَّولة العظيمة جدًّا. وعلمنا كيف أنَّ دولاً مثل فرنسا أو إنجلترة أو بلجيكا أو البرتغال... تحتلُّ كلٌّ منها عشرات الدُّول وتسيطر على مقدراتٍ هائلةٍ من مقدرات الأمم.

4 الكفاءات العلميَّة

الكفاءات العلميَّة جزءٌ صميميٌّ من الإمكانات البشريَّة، وربَّما هي إحدى المؤشِّرات المهمة على حيويَّة الأمَّة وقدرتها وعقليتها... والكفاءات العلميَّة العربيَّة المهاجرة تثبت بما لا يدع مجالاً للشكِّ أنَّها أمَّةٌ خلاقةٌ حتَّى وهي في حضيض تخلُّفها وتقهقر مكانتها بَيْنَ الأمم تقهقراً مخيفاً ومخزياً.

---

٦٩ ــ نصر شمالي: **كيف ينظر الغرب إلى موقع أمتنا؟** ــ جريدة **البعث** ــ عدد الخميس ٢٦/١١/ ٢٠٠٤م.

حاولنا تقصّي حجم الكفاءات العربيّة المهاجرة في بحثٍ سابقٍ فاعترضتنا ثلاث مشكلاتٍ كبيرةٌ أوّلها عدم وجود إحصاءاتٍ دقيقةٍ، وثانيها امتناع معظم الدُّول عن التّعاون في تقديم معلوماتٍ صادقةٍ أو كافيةٍ، وكلٌّ من اشتغل في هذا الموضوع واجه هاتين المشكلتين[٧٠]، وثالثها وهي مرتبطةٌ بما سبق ومنبثقةٌ عنه، هي تضارب الأرقام وتناقضها في بعض الأحيان، ففي حين يقدِّرُ بعضهم «أنّه بحلول عام ٢٠٠٠م سيتجاوز عدد الخرّيجين الجامعيين العرب (٧) ملايين. (٤٠) بالمئة من هؤلاء سيكونون مهندسين، وعلماء، وأطباء، وطاقات بشرية أخرى. وبالفعل سيكون لدى الوطن العربي (٧٠) بالمئة مما لدى الولايات المتّحدة الأمريكيّة من المهندسين، إلا أنّ امتلاك المورد لا يعني أنّه سيستخدم بكيفية إنتاجية»[٧١]. نجد أنّه في الوقت ذاته تقريباً تعلن صحيفة القدس العربي أنّ بعض التّقديرات «أكّدت وجود ما يزيد على عشرة ملايين مختصٍّ علميٍّ عربيٍّ هاجروا في العقدين الأخيرين إلى أوروبا وأمريكا. وإذا أضفنا المهاجرين قبل السّبعينات، كما تشير إحصائيّةٌ لجامعة الدُّول العربيّة، فإنّ العدد قد يصل إلى عشرين مليون عالمٍ عربيٍّ، منهم مليونان في الولايات المتحدة، بعضهم علماء في الطّاقة النّوويّة. وبالنّسبة لمصر فيكفي أن نعرف أنّ من بَيْنَ (٨٢٤٠٠٠) مصري يعملون في الخارج، فإنّ هناك (٣١٨٠٠٠) منهم يعملون في الولايات المتحدة الأمريكيّة. من هذا العدد (٨٤٤) عالماً في الطّاقة النّوويّة»[٧٢].

---

٧٠ ــ عثمان أبا يزيد: **دراسة حالة لبعض مشاريع اليونسكو المتعلقة بهجرة الكفاءات العربية** ــ ضمن كتاب: **هجرة الكفاءات العربية** ــ مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ــ ط٣ ــ ١٩٨٥م ــ ص١٧٣.

٧١ ــ أنطوان زحلان: **هجرة الكفاءات العربية؛ السياق القومي والدولي** ــ ضمن مجلة؛ **المستقبل العربي** ــ مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ــ العدد ١٥٩ ــ ٥/ ١٩٩٢م ــ ص١٩.

٧٢ ــ صحيفة: **العربي** المصريّة ــ العدد ٢٦٩ ــ تاريخ ٨ حزيران ١٩٩٨م.

وعلى الرَّغْمِ مما يبدو في هذه الأرقام من مبالغة فإنَّها في حقيقة الأمر لا تخلو من جانبٍ كبيرٍ من الحقيقة، ففي التَّقرير الذي نشرته الجامعية العربيَّة في النِّصف الأول من عام ٢٠٠١م، «قدرت فيه خسائر الدُّول العربيَّة من جراء هجرة علمائها إلى الخارج بما يزيد عن مئتي مليار دولار، مشيرً إلى أنَّ الدُّول الغربيَّة هي المستفيد الأكبر من احتضان أكثر من ٤٥٠ ألف عربي من حملة الشَّهادات العليا والمؤهّلات الفائقة القيمة»[٧٣]. والذي يبدو من هذا النَّص أنَّ هذا المبلغ من الخسائر هو مقدار نفقات إيفاد هذه الكفاءات التي لم تعد، والتي بلغ عددها ٤٥٠ ألف كفاءة. وبحسبةٍ يسيرةٍ يمكن القول إن هذا العدد قد لا يزيد عن عُشر الكفاءات العلميَّة المهاجرة بحالٍ من الأحوال، لأنَّ الذين أوفدوا و لم يعودوا أقلٌ بكثير جدًّا من الكفاءات التي هاجرت من تلقاء ذاته، أو التي درست على حسابها، أو التي تكوَّنت في الغرب، أو التي تنتسب إلى أصلٍ عربيٍّ مباشرٍ أو لجيلٍ ثانٍ أو ثالثٍ.

ولكنَّ المشكلة التي تعترضنا هنا مشكلةٌ مزدوجةٌ، فمن النَّاحية الأولى نحن غَيْرُ قادرين على التَّحقُّق من صحّة هذه الإحصاءات على ضوء ما لدينا من المعطيات، ومن النَّاحية الثَّانية أنَّ الأرقام المتوافرة لدينا معظمها من إحصاءاتٍ قديمةٍ غير دقيقةٍ وتفتقر إلى كثيرٍ من المصداقيَّة، وغالبيَّة الإحصاءات التي عَثَرْنَا عليها تعتمد على أو آخر على مصدرٍ واحدٍ تقريباً هو دراسات **أنطوان زحلان**، وكلُّها قديمة، ولأنَّنا توسَّعنا في هذا الموضوع في بحثٍ مستقلٍ[٧٤] سنختصر هنا قدر المستطاع.

---

٧٣ ــ ياسين رفاعية: **خسائر العرب العقلية ٢٠٠ مليار دولار** ــ ضمن جريدة المحرر العربي ــ لندن ــ العدد ٢٩٧ ــ ١حزيران ٢٠٠١م ــ ص٢٤.

٧٤ ــ هجرة الكفاءات العربية موضوع بحث كبير مطول عكفنا عليه منذ نحو عشر سنوات و لم نزل، وهو الآن وشيك الصدور.

نبدأ من حديثٍ قريبِ العهد «لوزير التَّعليم العالي والبحث العلمي المصري عن دورٍ كبيرٍ مقبلٍ لأكثر من ثلاثين ألف عالم مصريٍّ في الخارج»[٧٥]. وفي حوار مع الدُّكتور **فاروق الباز** نُشر بعد هذا الكلام بسنتين ذكر الدُّكتور **الباز** أنَّ هناك (١١٠٠) عالم في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وكندا[٧٦]. وعلى الرَّغْمِ من أنَّ عدد الأطباء السُّوريين وحدهم في ألمانيا وحدها، يربو على (٢٥) ألف طبيباً حسب تقديرات رابطة المغتربين السُّوريين في ألمانيا، فإنَّنا نفاجئ بأنَّ عدد الأطباء العرب في الولايات المتحدة الأمريكيَّة نحو عشرة آلاف طبيبٍ فقط[٧٧]، وعلى الرَّغْمِ من أنَّ هذا العدد من الأطبَّاء العرب في الولايات المتَّحدة هم فقط من المولودين في الوطن العربيِّ، فإنَّه لا يستقيم منطقيًّا مع عدد الأطبَّاء السُّوريين في ألمانيا. وأيًّا كان الأمر فليس هذا إلا أنموذجاً من التَّناقضات التي نجدنا أمامها في هذا الموضوع.

أمَّا الإحصاءات القديمة نسبيًّا فقد ذكر الدكتور **محمد عبد العليم مرسي** أنَّه «هاجر خلال المدَّة من ١٩٦٧/٦/٣٠م حتى ١٩٦٨/٦/٣٠م نحو من ١٥٩٧٣ من العلماء والمهندسين والأطبَّاء العرب. وخلال المدَّة نفسها من العام التَّالي هاجر ٣١٩٨١. أمَّا العام الثَّالث فكان نصيبه ١٦٤٩٢ مهاجراً، هذا إلى أمريكا وحدها»[٧٨]. أي إنَّ نصيب الولايات المتحدة الأمريكيَّة وحدها من الكفاءات العربيَّة المهاجرة قد بلغ خلال ثلاثة أعوام ٦٤٤٤٦ كفاءة.

---

٧٥ ــ محمد عارف: **العلماء العرب يطرقون أبواب الناتوتكنولوجي** ــ ضمن جريدة؛ **الحياة** ــ الأربعاء ١٦ رمضان ١٤١٨هـ/ ١٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٨م ــ العدد ١٢٧٣٦.

٧٦ ــ فريد وجدي: **حوار مع الدكتور فاروق الباز** ــ ضمن جريدة؛ **الاتحاد؛ الملحق الاقتصادي** ــ أبو ظبي ــ الأربعاء ١١ ذو القعدة ١٤٢٠هـ/ ١٦ شباط/ فبراير ٢٠٠٠م ــ العدد٨٩٩١.

٧٧ ــ محمد علي صالح: **الأطباء الأمريكيون العرب ومحاولة رد الجميل** ــ ضمن مجلة؛ **المجلة** ــ لندن ــ العدد ١٠١٤ ــ ١٨/ ٧/ ١٩٩٩م.

٧٨ ــ د. محمد عبد العليم مرسي: **هجرة العلماء من العالم الإسلامي** ــ مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة ــ الرياض ــ ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ــ ص٥٣. وكذلك ضمن: د. عبد الكريم بكَّار:

الحقيقة أنّ هناك الكثيرَ من الإحصاءات وتضاربات الأرقام، ولكنّها ستصل في المحصِّلة إلى أنّ هناك مئات الألوف من الكفاءات العلميَّة المتميِّزة والخطيرة المنتشرة في أصقاع العالم وخاصَّةً أوروبا والولايات المتحدة الأمريكيَّة. ولكن الذي يعنينا أكثر من ذلك كلِّه أنّ هذه الكفاءات ليست كفاءاتٍ عاديَّةً في كثير من الأحيان والحالات، وإنَّما هي كفاءات من الطِّراز الرَّفيع، ولها إنجازات مبهرة وعظيمة وتحتلُّ أمكنة جدَّ حسَّاسةٍ في بلدان العالم مثل عالم الفضاء الشَّهير جدًّا **فاروق الباز**، وعالم الفيزياء النَّووية **أحمد زويل** الحائز على جائزة نوبل، وأكبر وأعرق وسام أمريكي وهو جائزة بنيامين فرانكلين، باكتشافة الذي أذهل العالم وأحدث انقلاباً مدويًّا في كلِّ الأوساط العلميَّة[٧٩]، **وعبد القادر حلمي** أحد أهم علماء الصَّواريخ في العالم[٨٠]، وعالم الفيزياء **رمال رمال** الذي كاد أن يصل إلى جائزة نوبل في الفيزياء[٨١]، وعالم الإلكترونيات **يوسف أبو الخدود** الذي صمَّم القوَّة الكهربائيَّة في المركبة الفضائية (ماريتر٧) ومهَّدت لإطلاق أوَّل مركبةٍ حملت الإنسان إلى القمر عام ١٩٦٩م[٨٢]، و«الدكتور **محمد صوان** الذي يقود فريقاً كنديًّا

نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي ــ دار القلم/ الدار الشاميَّة ــ دمشق/ بيروت ــ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ــ ص٧٩.

٧٩ ــ محمد عارف: **حكايات سندباد علمي؛ الطرق يصنعها المشي** ــ مجلة **العربي** ــ وزارة الإعلام ــ الكويت ــ العدد ٤٩٤ ــ كانون الثاني ــ ٢٠٠٠م ــ ١١٦.

٨٠ ــ مطر حلمي: **قصة القبض على أحد أهم خمسة علماء صواريخ في العالم** ــ مجلة **المجلة** ــ العدد ٥٣٧ ــ ٢٩/ ٥/ ١٩٩٠م ــ ص١٨.

٨١ ــ سعيد الصباح: **لبنان والعرب يخسرون علماءهم** ــ مجلة **الشراع** ــ العدد ٩١٣ ــ كانون الثاني ــ ١٩٩٩م ــ ص٣٩ ــ ٤١.

٨٢ ــ سعيد الصباح: **عالمان لبنانيان آخران في عالم النسيان** ــ مجلة **الشراع** ــ العدد ٩١١ ــ كانون الثاني ــ ١٩٩٩م ــ ص٤٣ ــ ٤٧.

لابتكار عَيْنٍ صناعيَّةٍ تعيد البصر للمكفوفين»[٨٣]، و«السير **بيتر مدور**، اللبناني الأصل، الذي نال جائزة نوبل في الطب عام ١٩٦١م»[٨٤]، و«الدكتور **ريكاردو ميلادي (ملحم)** الحائز على جائزة نوبل في الطب مرتين بالمشاركة»[٨٥]. و«العالم **إلياس جيمس خوري** أحد القلائل الذين يفوزون بجائزة نوبل في الكيمياء منفرداً»[٨٦]، و«السِّير **مايكل عطية** الذي نال أعلى الجوائز العالميَّة في الرِّياضيات وتسنَّم المناصب العلميَّة في بريطانيا، **ومصطفى شاهين** رئيس العلماء في مختبر الدَّفع النَّفاث التَّابع لوكالة الفضاء الأمريكيَّة (ناسا)، والدُّكتور **فخري البزاز** أستاذ الأحياء في جامعة هارفارد وعضو أكاديمية العلوم والفنون الأمريكية، والدُّكتور **منير نايفة** أستاذ الفيزياء النَّظريَّة في جامعة إيلينوي أربانا شامبين الذي ارتبط اسمه برصد الذَّرَّات المنفردة وتحريكها... **وصالح الوكيل** الذي قال عنه بيان انتخابه عضواً في الأكاديمية القوميَّة للعلوم في الولايات المتحدة إنَّه أحدث ثورةً في علوم الطِّب... وغيرهم كثيرٌ ممن يضيق المجال عن سرد أسمائهم فقط.

وعلى الرَّغْمِ من ذلك ومن خطورة دلالاته نجد أحد أعظم علماء النَّانوتكنولوجي القرن العشرين الدكتور **منير نايفة**، الذي قيل عنه وعن أقربائه في الولايات المتحدة: «إنَّ قبيلة آل نايفة يسيطرون على علم النَّانوتكنولوجي في الولايات

---

٨٣ ــ جريدة **الاتحاد** ــ أبو ظبي ــ الثلاثاء ١٩ شوال ١٤٢٠هـ/ ٢٥ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠م ــ العدد ٨٩٦٩.

٨٤ ــ محمد عارف: **نجوم عربية في سماء الهندسة والعلوم العالمية للقرن العشرين** ــ ضمن جريدة؛ **الحياة** ــ لندن ــ العدد١٣٤٤٩ ــ الأربعاء ٢٨ رمضان ١٤٢٠هـ/٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠م.

٨٥ ــ محمد علي صالح: **الأطباء الأمريكيون العرب ومحاولة رد الجميل** ــ م. س ــ ص٦٠.

٨٦ ــ غسان غصن: **نوبل والمتحدرون من أصل عربي** ــ ضمن جريدة؛ **السفير** ــ العدد ٨٧٣٩ ــ الثلاثاء ٢٤ تشرين الأول ٢٠٠٠م.

المتَّحدة»، نجده في لقاء خاصٍّ على التّلفزيون السُّوري أجراه معه المذيع **توفيق حلاق** يردُّ على دعوة الكفاءات للعودة إلى الوطن قائلاً: «لستم بحاجة لنا، ما لديكم يكفي وزيادة».

5- الثروات الطبيعيَّة

الثَّروات الطَّبيعيَّة عاملٌ يضاف إلى إمكانات الأمَّة على الفعل الحضاري والتَّاريخي، وهو عاملٌ على أهمِّيَّته وخطورته عاملٌ مساعدٌ لا أكثر، لأنَّ العوامل الأخرى هي العوامل الأكثر خطورةً وحسماً، وقد وجدنا كيف أنَّ أمماً تكاد تخلو من الثَّروات الطَّبيعيَّة استطاعت أن تزاحم على المراكز المتقدِّمة في الفعل الحضاري والتَّاريخيِّ بَيْنَ الأمم. ووجدنا كيف أنَّ دولاً صغيرةً وصغيرةً جدًّا في بعض الأحيان تقف في صفوف متقدِّمةٍ جدًّا على أممٍ تفوقها عشرات أو مئات المرَّات في الثَّروات الطَّبيعيَّة والمساحة الجغرافيَّة والسكانيَّة.

ومع ذلك فإنَّ الأمَّة العربيَّة تعوم على كنوزٍ وبحورٍ من الثَّروات الطَّبيعيَّة من مختلف الأصناف والأنواع، إذا كان النَّفط على رأسها فإنَّه ليس الوحيد ولا الأكثر خطورةً ولا أهميَّةً. ونظرةٌ صغيرةٌ على الخريطة الجغرافيَّة للأمَّة العربيَّة وموقعها بَيْنَ دول العالم وقارَّاته يكشف لنا عن المزايا التي تتمتع بها الأمَّة العربيَّة من ناحية الاعتدال المناخيِّ والتَّنوُّع البيئي ووفرة الطَّاقات الطَّبيعيَّة والمساحات الزِّراعيَّة. ويضاف إلى ذلك ما يقبع في باطن الأرض العربيَّة من ثروات وكنوز.

لن نطيل في ذلك شرحاً وتفصيلاً، وحسبنا منه ما كان من المعارف الشَّائعة التي يعرفها الكثيرون حتَّى من غير المثقَّفين. وفي حدود ما هو شائعٌ، على سطحيَّته، ما يدلُّ على أنَّ الثَّروات الطَّبيعيَّة تقف عاملاً مساعداً بشدَّةٍ على تكميل سلسلة عناصر الإمكانات التي تمتلكها الأمَّة العربيَّة على النُّهوض والفعل الحضاريِّ والتَّاريخيِّ.

6 ـ الكفاءات المالية

قد يعترض معترضٌ بأنَّ كلَّ الإمكانات السَّابقة لا تساوي شيئاً ما لم تكن هناك كفاءاتٌ ماليَّةٌ كافيةٌ.

من المؤكَّد أن هذا الاعتراض مرفوضٌ لأنَّ الإمكانات الماليَّة لاحقةٌ على كلّ تلك العناصر، ناهيك عن أنَّها أيسر هذه الشُّروط إذا ما دارت عجلة نهوض الأمَّة حتَّى ولو لم تكن تمتلك درهما واحداً.

ومع ذلك أيضاً فإنَّ الإمكانات الماليَّة للأمَّة العربيَّة، على تخلُّفها، وفقرها، وموت أبنائها جوعاً، هي إمكاناتٌ مذهلةٌ يصفها الكثيرون بأنَّها إمكاناتٌ أسطوريَّةٌ.

ومما يؤكِّد ذلك الأموال العربيَّة المهرَّبة والمستثمرة خارج الوطن العربي، وليس لدينا في حقيقة الأمر أيَّة معطياتٍ حقيقيَّةٍ أو دقيقةٍ، شأننا في ذلك كشأننا مع العائدات العربيَّة، فقد ذكر الدُّكتور **عدنان مصطفى** في مطلع التِّسعينيات من القرن العشرين «أنَّ رجال الأعمال العرب، في الأقطار العربيَّة الغنيَّة، دون حكوماتها، يدَّخرون في الخارج (١٢٠) مليار دولار، ويعتقد بأنَّ أمثالهم من الأقطار العربيَّة الفقيرة يدَّخرون ما لا يقلُّ عن (٥٠) مليار دولار»[٨٧]. ولن نناقش مدى مصداقية هذا الرقم لأنَّ المعطيات قد تغيَّرت كثيراً وإن ظلَّت غير كاملةٍ ولا دقيقةٍ، ففي عام ١٩٩٦م ذكرت صحيفة الحياة أنَّ الأسواق العربيَّة تجتذب فقط (٥٠) مليار دولار من أصل (٦٧٠) مليار دولار من الأموال العربيَّة المستثمرة في الخارج في مطلع التِّسعينيات[٨٨]. أمَّا في أواخر التِّسعينيات فتشير «تقارير إحصائيَّة موثوقٌ فيها ـــ حسب زعم صحيفة القدس العربي ـــ إلى أنَّ حجم الأموال العربيَّة

---

٨٧ ـ الدكتور عدنان مصطفى: **أزمة البحث العلمي؛ هل إلى خروج من سبيل؟** ـ ص٩ـ١٠.

٨٨ ـ جريدة؛ **الحياة** ـ الأحد ١١ شباط/ فبراير ١٩٩٦م ـ العدد ١٢٠١٤.

خارج الوطن العربي وصل إلى (٨٥٠) مليار دولار ... تدعم اقتصاد العالم الغربيِّ على نحوٍ خاصٍّ، بينما حالنا [نحن العرب والمسلمون] لا يحتاج إلى إشارة»[٨٩].

قلت حسب زعم الصَّحيفة لأنَّ هذا الرَّقم (الموثوق فيه) خالٍ من المصداقيَّة أيضاً، والذي يؤكِّد ذلك أكثر من سببٍ، أولها أنَّ الغالبيَّة العظمى من المبالغ المودعة في الخارج تتسم بالسِّريَّة، ولذلك من المتعذِّر الكشف عنها. وثانيها أنَّ الأمير الدُّكتور **نايف بن فواز الشَّعلان** رئيس مجلس إدارة كنزبنك؛ أوَّل بنك برأسمالٍ عربيٍّ في سويسرا، قد أكَّد «أنَّ مجموع الأموال العربيَّة المهاجرة لكلٍّ من القطاع الحكومي والخاص تصل إلى (٥,١) ترليون دولار وليس (٨٠٠) مليار كما كان يُعلنُ من قبل في بعض وسائل الإعلام، وبيَّنَ أنَّ تأسيس البنى التَّحتية للبلدان العربيَّة يحتاج إلى نحو (١٥٠) مليار دولار»[٩٠]. وثالثها أنَّ الواقع لا يتَّفق مع هذه الأرقام مطلقاً، **فالوليد بن طلال**؛ سادس أغنى رجل في العالم، وهو العربيُّ الوحيد الذي يَسْمَحُ أن يُذْكَرَ اسمه بَيْنَ أغنياء العالم حَتَّى هذه السَّنة فقط، يملك وحده مثل هذا المبلغ، حسب كلامه هو وفي أكثر من موقع ومكان، «فقيمة موجودات الشَّركات التي يملكها (٨٠٠) مليار دولار.

ـــ وإجمالي أرباحها (١٧) مليار دولار»[٩١].

ـــ (٢٥%) منها فقط ضمن الوطن العربي. (٧٥%) منها خارج الوطن العربي»[٩٢].

---

٨٩ ـــ جريدة: **القدس العربي** ـــ القاهرة ـــ العدد ٤٢٣ ـــ تاريخ ٦ / ٨/ ١٩٩٩م.

٩٠ ـــ جريدة **تشرين** ـــ العدد ٨٠٠٨ ـــ الأحد ٢٧ صفر ١٤٢٢هـ الموافق لـ ٢٠أيار ٢٠٠١م.

٩١ ـــ حسن صبرا: **حوار مع الوليد بن طلال** ـــ ضمن مجلة؛ **الشراع** ـــ بيروت ـــ العدد ٨٩٧ ـــ ١٩٩٩م ـــ ص١ ـــ ٥ ـــ ١٩ من الملف.

٩٢ ـــ م. س ـــ ص١٣.

والوليد بن طلال ليس المستثمر العربيَّ الوحيد خارج الوطن العربيّ، إنَّهُ واحدٌ من عشرات وربَّمَا من مئات. هذا من جانبٍ، ومن جانبٍ آخر أنَّ هذا المبلغ، حتَّى الذي ذكره الأمير نايف، يشير فقط إلى الأموال المستثمرة أو المعلنة من دون الأموال المهرَّبة والحسابات السِّرِّيَّة. ولذلك عندما زعم أحد المفكّرين في محاضرةٍ ألقاها في مطلع الألفيَّة الثَّالثة أنَّه قرأ في مجلة ألمانيَّة في بحر عام ١٩٩٩م أنَّ الأموال العربيَّة المهرَّبة إلى الخارج تربو على (١٢٠) ألف مليار دولار، أي (١٢٠) ترليون دولار، أي (١٢٠) مليون مليون دولار... لم يصفّر أحد دهشةً، ولم تبدو أيَّة علامة استغرابٍ، على الرُّغم من هول هذا الرَّقم وأسطوريَّته المتجاوزة حدود الخيال وآفاقه وقدراته.

خاتمة

إن غاب المنطق أو حضر نحن أمام إمكانات في مختلف المجالات والأصعدة والميادين لا يمكن نكرانها، قادرةٍ على تحقيق نهضةٍ عربيَّةٍ إن لم تكن خارقةً فلن تكون أقلَّ من جبَّارةٍ؛ نهضةٍ في مختلف المجالات والأصعدة والميادين.

يبدو مِمَّا سبق، وهو محض إلماحةٍ من حقيقة المشهد الدَّالّ على إمكانات العرب الحقيقيَّة، أنَّ كلَّ مقوِّمات الفعل الحضاريّ والتَّاريخيّ للأمَّة العربيَّة متوافرةٌ بسخاءٍ وربَّمَا يصحُّ القول إنَّهُ لا ينقصها شيٌ من إمكانات هذا الفعل ومقوِّماته. فلماذا لا تنهض؟

إذا قلنا لم يبق إلا الإرادة فربَّما يكون جوابنا ناقصاً. لأنَّ عدم توافر الإرادة مع توافر كلِّ هذه الإمكانات مشكلةٌ خطيرةٌ. ومع ذلك فإنَّنا لا نجد إلا أن نقول: لم يبق إلا إرادة التَّقدُّم إلى ممارسة الدَّور الذي يغيِّر هذا الموقع المتردِّي للأمَّة العربيَّة. فمتى نمتلك هذه الإرادة؟؟؟

إذا كنَّا لا نمتلك هذه الإرادة اليوم، مع توافر هذه الإمكانات الكبيرة الخلاَّقة الجبَّارة فإنَّ أشدَّ ما نخشاه أن لا نعي أهميَّة امتلاك هذه الإرادة إلا بعد فوات الأوان، بعد أن تتلاشى هذه الإمكانات أو تضمحلَّ أو تتبدَّل إلى ما لا تحمد عقباه أو على الأقلّ إلى ما لا يخدم إرادة النَّهضة، وليس هذا بالأمر المتعذَّر ولا المستبعد.